



مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعية - محكمة

تصدر سنويًا عن

كلية الدعوة الإسلامية

العددان الواحد والثلاثون والثاني والثلاثون

لسنة 1439 - 1440 الهجرية المافق: 2017 - 2018 الميلادية

الْهَدِيَّةُ النَّبَوَّيَّةُ فِي الْطَّبِّ بَيْنَ الْوَقَايَةِ وَالْعَلاجِ

د. زكية بالناصر العفود
جامعة بنغازي - ليبيا

المقدمة :

منذ مطلع النبوة الشريفة كان هناك طب نبوي كريم، تمثل مصادره في نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، فقد ورد في القرآن ما يزيد على أربعين آية تتعلق بالطب. وقد اشتهرت عدة مؤلفات تتحدث عن الطب النبوي، جمع فيها أصحابها الأحاديث النبوية التي تتعلق بالطب والعلاج، من أهمها صحيح البخاري الذي اشتمل على كتابين من الجُزء السابع يتصلان بهذا الأمر؛ حيث يبدأ البخاري الكتاب الثاني بحديث النبي : «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»⁽¹⁾. وقد احتوى الكتاب الأول على ثمانية وثلاثين حديثاً، واحتوى الثاني على واحد وتسعين حديثاً. ومن هذه المؤلفات في الطب النبوي كتاب الطب النبوي للذهبي⁽²⁾، وكتاب الأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال ابن طرخان، وكتاب الطب الشبوي لأبي جعفر المستغري، وكتاب الأربعين المستخرجة من سنن ابن ماجه التي شرحها

(1) البخاري، أبو عبد الله بن محمد إسماعيل، صحيح البخاري، دار الثقافة (بيروت، 1991م)، كتاب الطب، 7/224.

(2) الذهبي، الطب النبوي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، (القاهرة، 1961م)، ص 103.

الطبيب البغدادي⁽¹⁾، ومنها -أيضاً- كتاب المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي للسيوطى، وكتاب الطب النبوى للعلامة ابن القىم الجوزية⁽²⁾.

وهنا نشير تساؤلاً كيف كان هديه عليه السلام في معالجة الأمراض التي تعتري الأبدان؟

ويَتَّسِعُ هذا من هديه في الطب الذي تطبّب به ووصفه لغيره، ونبين ما فيه من الحِكمة التي عجزت عقول أكبر الأطباء عن الوصول إليها، قال ابن القىم: «المرض نوعان: مرض القلوب ومرض الأبدان»⁽³⁾. وهذا يتفق مع ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْرِهُونَ»⁽⁴⁾، وقوله تعالى: «وَلَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكُفَّارُ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِنَا مَثَلًا»⁽⁵⁾، وقوله: «إِنَّمَا عَلَى الْأَعْمَانِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْنَاجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ»⁽⁶⁾.

وقد ذكر مرض البدن في الحجّ والصوم والوضوء. قال تعالى: «أَيَّامًا مَعَدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعَدَةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخْرَ»⁽⁷⁾، وقال تعالى: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَدَى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدَيْتَهُ مِنْ صِيَامٍ أَوْ شُكُوكٍ»⁽⁸⁾، وقال تعالى: «وَإِنْ كُلُّمْ مَرْجَحٌ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاهَةً أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْمُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَحْدُو مَاءَ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيْبًا»⁽⁹⁾.

(1) البغدادي، موقف الدين عبد اللطيف، الطب النبوى، تعليق عبد المعطي قلعجي، دار المعرفة (بيروت، 1986)، ص.98.

(2) ابن قىم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب، الطب النبوى، تعليق عادل الأزهر فرج، دار الكتب العربية (بيروت، د.ت)، ص.189.

(3) ابن القىم، محمد بن أبي بكر، زاد المعاذ في هدي خير العباد، دار الكتب العلمية (بيروت، 1970)، ص.200/2.

(4) سورة البقرة، الآية: 10.

(5) سورة المدثر، من الآية: 31.

(6) سورة النور، من الآية: 61.

(7) سورة البقرة، من الآية: 183.

(8) سورة البقرة، من الآية: 196.

(9) سورة النساء، من الآية: 43.

ويَتَضَعُّ من هذه الآيات الكريمة أَنَّ اللَّهَ وَضَحَّ لِعِبَادِهِ قَوَاعِدَ طَبِ الْأَبْدَانِ الَّذِي يَشْمَلُ حِفْظَ الصَّحَّةِ وَالْحِمْيَةِ عَنِ الْمُؤْذِيِّ، وَاسْتِفَارَغَ الْمَوَادِ الْفَاسِدَةَ؛ حِيثُ بَيْنَ سَبْحَانِهِ هَذِهِ الْأَصْوَلُ فِي الصَّوْمَ، وَأَبَاحَ الْفَطْرَ لِلْمَرِيضِ، لِعُذْرِ الْمَرِيضِ، وَلِلْمُسَافِرِ لِلْحَفَاظِ عَلَى صِحَّتِهِ وَقُوَّتِهِ. وَفِي الْحَجَّ أَبَاحَ لِلْمَرِيضِ وَمِنْ بَهْ أَذْى مِنْ رَأْسِهِ، مِنْ قَمْلٍ أَوْ حَكَّةً أَوْ غَيْرَهَا، أَنْ يَحْلِقَ رَأْسَهُ فِي الْإِحْرَامِ اسْتِفَارَاغًا لِمَادَّةِ الْأَبْخَرَةِ الرَّدِيَّةِ الَّتِي أَوْجَبَتْ لَهُ الْأَذْى فِي رَأْسِهِ بِاحْتِقَانِهَا تَحْتَ الشَّعْرِ. فَإِذَا حَلَقَ رَأْسَهُ، فَتَحَقَّقَ الْمَسَامُ، فَخَرَجَتْ بِذَلِكِ الْأَبْخَرَةِ مِنْهَا⁽¹⁾. وَأَمَّا الْحِمْيَةِ فَقَدْ أَبَاحَ لِلْمَرِيضِ الْعَدُولَ عَنِ الْمَاءِ إِلَى التَّرَابِ، حِمْيَةٌ لَهُ أَنْ يُصَبِّ جَسْدَهُ مَا يُؤْذِيهِ⁽²⁾.

وَعَمِلَ عَلَى مُعَالِجَةِ الْأَمْرَاضِ الَّتِي تُصَبِّ الْأَبْدَانَ بِطَرِيقَتَيْنِ؛ أَوْلَاهُمَا: حِفْظَ الصَّحَّةِ، الَّتِي تُعْرَفُ بِلُغَةِ الْوَقْتِ الْحَاضِرِ بِالْتَّطْبِ الْوَقَائِيِّ. الثَّانِيَّةُ: التَّدَاوِيُّ، وَهِيَ مُعَالِجَةُ الْأَمْرَاضِ الَّتِي تُعْتَرِي جَسْمَ الْإِنْسَانِ بِالْأَدْوِيَةِ أَوْ الْجَرَاحَةِ.

وَيَقْصِدُ بِالْتَّطْبِ الْوَقَائِيِّ: الْاِحْتِرَازُ مِنِ الْوَقْوعِ فِي الْمَرْضِ، بِاتِّبَاعِ قَوَاعِدِ الصِّحَّةِ الْعَامَّةِ. فَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِالْقَوْانِينِ الَّتِي وَضَعَهَا الْخَالِقُ لِخَلْقِهِ، وَتَسْعَى إِلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ فِي وَضْعِهِ الْأَمْثَلِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَّجَ أَسْمَرَ رَيْكَ الْأَعْلَى * أَلَّذِي حَلَقَ فَسَوَّ﴾⁽³⁾؛ لِأَنَّ الْمُقْصِدَ الْأَسَاسِيُّ مِنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ هُوَ جَلْبُ الْمَصَالِحِ لِلْعِبَادِ وَدَرْءُ الْمَفَاسِدِ عَنْهُمْ⁽⁴⁾. يَقُولُ السِّيَوَاطِيُّ: «اَتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّ الشَّرِيعَةَ وَضَعَتْ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَى الْضَّرُورَيَّاتِ الْحَمْسِ»، وَهِيَ: الدِّينُ

(1) ابن قَيْمِ الْجَوْزِيَّةِ، الْطَّبُ النَّبَوِيُّ، ص 68، كَذَلِكَ الْبَخَارِيُّ، بَابُ الْحَلْقِ مِنَ الْأَذْى، 7 .229

(2) النسيمي، محمد ناظم، إيداع الرسول العربي في فن الصحة والطب الوقائي، أبحاث الندوة العلمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب (الفترة ما بين 5-12 / 4 / 1976م)، مطبعة جامعة حلب، (حلب 1976)، ص 42.

(3) سورة الأعلى، الآيات: 1-2.

(4) السعيد، أيمن محمود، أصول الطب الوقائي في الحديث النبوى، ص 43. وكذلك الصاحب، محمد عيد محمود، التغذية والطب الوقائي، ص 35.

والنَّفْسُ والنَّسْلُ والمال والعقل. وأنَّ ثلاثاً من هذه الضروريات الخمس، وهي النفس والنَّسْلُ والعقل، لا تكتمل المحافظة عليها إلَّا بالحفظ على الصَّحة. كما جعل الصَّحة في المقام الأوَّل فقال: «سلوا الله المُعافاة، فإنَّه لم يُؤتَ أحدٌ بعد اليقين خيراً مِنَ المُعافاة»⁽¹⁾.

نجد في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وُسْتَةً نبِيًّا كثيرةً من التصوص التي لو أَنَّا تعمَّقنا في فهمها وطبقناها تطبيقاً رشيداً لوجدنا بين أيدينا سُفراً مُساهماً في فقه الصَّحة⁽²⁾.

والأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، الوضوء الذي يفرضه الإسلام على الإنسان المسلم؛ حيث أمره بالوضوء كلَّما انتقض وضوئه، مع الترغيب في الإكثار منه وتكراره عند كُلِّ مَنسَكٍ، فقد قال: «مفتاح الصَّلاة الطَّهور»⁽³⁾. قوله: «الوضوء شَطْرُ الإيمان»⁽⁴⁾. ونجد في حَثِّ الرسول الكريم على تكرار الوضوء تأكيداً على النَّظافة العامة لأجزاء جسم الإنسان، لما يشمله الوضوء من نظافة الأعضاء والأطراف. ولا يقتصر هذيه على النَّظافة العامة، بل لقد حَثَ على النَّظافة الموضعية، في مثل قوله: «قصوا الأظافر واحلقوا العانة وانتفوا الإبط يوم الخميس»⁽⁵⁾.

(1) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، مختصر الطب النبوى، تحقيق: إبراهيم محمد الجمل ونشأت المصري، دار أبو سلام للطباعة والنشر والتوزيع، (تونس، د.ت)، ص 36. ويقول العالم عز الدين عبد السلام في كتابه قواعد الأحكام في مصالح الأنام: «الشريعة كُلُّها إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح، فإذا سمعت الله يقول: ﴿يَتَأَمَّلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فتأمل وصيَّته بعد ندائها، فلا تجد إلا خيراً يحيثك عليه أو شرًا يزجرك عنه، أو جماعاً بين الحَثِّ والزجر». انظر: الخياط، محمد هيشم، فقة الصحة، المطبعة العالمية، 1996، ص 3.

(2) فقه الصَّحة: يقصد به الوقاية من الأمراض.

(3) رواة الترمذى في السنن، رقم الحديث 618، 2/245.

(4) ابن حنبل، أحمد، مسنون ابن حنبل، دار المعارف، (القاهرة، 1945م)، ص 1/157.

(5) الترمذى، صحيح الترمذى، بشرح الإمام ابن العربي المالكى، ط (1) الصاوي (القاهرة، 1943م)، 11/8.

وممّا حثّ عليه الإسلام حفظ صحة الفم والأسنان. قال عليه الصلاة والسلام: «لولا أن أشقر على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»⁽¹⁾.

وقال عليه السلام: «تسوّكوا فإن السواك مطهرة للفم ومرضاة للرب»⁽²⁾. ومن هنا ندرك عمق الحِكمة النبوية لفوائد الطبيّة في استعمال السواك⁽³⁾.

ومن أشهر ما أثر عن النبي في مجال المحافظة على صحة الأبدان قوله: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرّا من بطنه. بحسب ابن آدم لقيمات يَقْمُنْ صُلْبَه. فإنْ كانْ لا بد فاعلاً، فُتْلَث لطعامه، وَتُلْثَلْ لشرابه، وَتُلْثَلْ لنفسه»⁽⁴⁾.

ومن أقوال الحكماء: «جوعوا تصحّوا»؛ ذلك لأنّ كثرة الطعام تُحدث التخمة، وتُلْبِك المَعْدَة، وتؤدي إلى عُسر الهضم وعدم اكتمال الامتصاص، وأنّ التراكم يؤدي إلى الالتهابات⁽⁵⁾.

العلم الحديث يؤكّد خطورة الإسراف في الطعام والشراب على الفرد نفسه وعلى من حوله وعلى بيئته، وربّما ندرك بعد هذه الحقائق أهميّة النداء الذي أطلقه القرآن في زمان لم يكن أحد يعلم شيئاً عن هذه المواضيع، عندما أمرنا القرآن أن نتبع نظاماً غذائياً مُتوازناً فلا يُبالغ أو يُنسرف، يقول تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرِبُوا وَلَا شُرُبُوا إِنَّمَا لَا يُحِبُّ الْمُسَرِّفِينَ﴾⁽⁶⁾.

فقد جعل الله الإسراف ذنباً ينبغي أن نتجنبه، وجعل الاعتدال في

(1) النيسابوري، أبو الحسن مسلم، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، ط 4، (بيروت، 1991)، كتاب الطهارة، 1/ 204.

(2) البخاري: كتابibus، 7/ 293.

(3) الإمام مالك في الموطأ، دار الآفاق، (المغرب، 1999)، ص 58. أثبتت التجارب العلمية الحديثة أن إهمال تنظيف الأسنان يؤدي إلى تعفن الفضلات الغذائية وتكاثر الميكروبات وإصابة الأسنان بالتسوس وإصابة اللثة بالالتهابات. انظر: هناء فوزي، مناهج الأطباء، ص 57.

(4) ابن حنبل، 1/ 157.

(5) هناء فوزي، مناهج الأطباء، ص 57.

(6) سورة الأعراف، من الآية: 31.

الإنفاق والطعام والشراب أمرًا يُحبه الله، ويُعطي عليه الأجر؛ لأنَّ الله يُريد لنا الخير في الدنيا والآخرة.

إنَّ جميع العلماء ينادون بأهميَّة الالتزام بالتوازن الغذائي وعدم الإسراف في الطَّعام والشَّراب، ويقولون إنَّ هذا أفضل طريق لعلاج الوزن الزائد. أليس هذا ما نادى به القرآن قبل أربعة عشر قرناً⁽¹⁾؟

لقد وضع لنا القرآن مِيزانًا لنلتزم به في إنفاق الأموال، فلا نُسرف ولا نُقْتَرُ، بل نكون مُتوازنين في حياتنا الاقتصادية، وما هذه الأزمات التي نعيشها اليوم إلَّا بسبب الابتعاد عن التوازن الطبيعي الذي فطر الله الأرض عليه. ويقول تعالى في صفات عِباد الله سُبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَعُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوْمًا﴾⁽²⁾.

إنَّ الذي يتَّمَّل آيات القرآن يُلاحظ أنَّ المولى تبارك وتعالى يأمرنا بعدم الإسراف في كُلِّ شيء، سواء في الطَّعام أو الشَّراب، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّتِ مَعْرُوفَتِ وَغَيْرَ مَعْرُوفَتِ وَأَنْتَخَلَ وَالرَّاعِ خُنَفَارًا أُكَلُّهُ وَالرَّبُّوْنَ وَالرَّمَادَ مُمْتَشِنَّهَا وَغَيْرَ مُمْتَشِنَّهَا كُلُّوْ مِنْ ثَمَرَةٍ إِذَا أَثْمَرَ وَأَتْوَ حَقَّهُ وَيَوْمَ حَسَادَةٍ وَلَا تُسْرِفُوا إِكْهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنْ أَلَّاعِنَمَ حَمُولَةَ وَفَرَشَأَ كُلُّوْ مِمَّ رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَنْتَهُوا خُطُوتَ الشَّيْطَنِ إِنَّهُ لَكُمْ عَذَّبُ مُؤْنَّ﴾⁽³⁾.

فانظروا معي كيف ربط البيان الإلهي بين النعم التي سخرها الله لنا من فواكه ونخيل وغير ذلك، وبين الإسراف من جهة، وبين خطوات الشيطان من جهة ثانية. فهذه إشارة إلى ضرورة أن يتَجَنَّب المؤمن الإسراف في أكله، وهذا ما يُنادي به علماء الغرب اليوم.

ولو تَأَمَّلْنَا أحدَادِيُّ الحبيب الأعظم عليه السلام نجدُه يؤكّد على أهميَّة أن نلتزم بنظام غذائي عندما قال: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرّاً من بطن، حسب ابن آدم

(1) سورة الأعراف، الآية: 31.

(2) سورة الفرقان، الآية: 67.

(3) سورة الأنعام، الآيات: 141-142.

أكلات يُقمن صُلبه فإنْ كان لا محالة فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه⁽¹⁾. فتأملوا هذه القاعدة النبوية المُذهلة كيف وزع الطعام والشراب ولم ينس حتى الهواء! ولو درسنا جميع حالات الوزن الزائد لرأينا أنَّ هناك خللاً في هذا التوزيع، فنجد أنَّ الطعام يُطغى على الشراب أو العكس.

ممَّا نادى به الطَّب الحديث للحفاظ على الصَّحة المشي وهذا ما أكَّدته السنة المُحمديَّة في قوله ﷺ عن أبي هريرة رضيَّ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم قال: «ألا أدلكم على ما يمحو اللهُ به الخطايا ويرفع به الدرجات؟»، قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ، قال: «إسباغُ الوضوءِ على المكاره وكثرةُ الخطى إلى المساجد وانتظارُ الصَّلاةِ بعد الصَّلاةِ فذلكم الرباطُ فذلكم الرباط»⁽²⁾.

فلقد وجد العلماء أنَّ رياضة المشي مهمة جدًا للإنسان وبخاصة بعد سن الأربعين. ووجدوا أنَّ رياضة المشي تقي من كثير من الأمراض أهمها البدانة والسكري والقلب. وربما من أغرب النتائج التي وصل إليها باحثون أميركيون أنَّ المشي يُشَطِّن الذاكرة ويزيد من القدرة على الذكاء والإبداع، وبخاصة إذا كان المشي تأمليًّا!⁽³⁾.

أي: أنك تمشي وأنت تتأمل خلق الله وتُفكِّر في نعمه الغزيرة وأنت راضٍ عمَّا قسمَه الله لك من الرِّزق، وهذا النوع من أنواع المشي لا يتحقق إلَّا عندما يمشي المؤمن إلى المسجد، وبخاصة عند صَلَاةِ الصُّبُحِ! وهذا نوع من العلاج المجاني، فما عليك إلَّا أنْ تكثر المشي إلى المسجد وتحافظ على أداء الصَّلوات الخمس.

(1) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الحديث 47، ص 467.

(2) أخرجه مالك: في الموطأ، ص 118 برقم 58، ومسلم برقم (251). كذلك انظر: السيوطي، ص 132.

(3) عبد الدَّايم الكحيل، الطَّب النبوى، موقع مجلة الدعوة، ص 7.

مجالات حفظ الصحة :

أولاً - نظافة البيئة المحيطة بالإنسان

لقد حرص الشارع على نظافة البيئة التي ستتعكس حتماً على صحة الفرد والمجتمع وتمثل في:

أ - نظافة المساجن والأفنية: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ طَيْبٌ يُحِبُّ الطَّيْبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظِيفَةَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ، فَنَظِفُوا -أَرَاهُ قَالَ: -أَفْنِتُكُمْ وَلَا تَشَبَّهُوَا بِالْيَهُودَ»⁽¹⁾.

ب - نظافة الطرقات وأماكن التجمع: حَدَّثَنَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى إِمَاطَةِ الْأَذَى عَنِ الْطُّرُقِ وَعَدْمِ التَّخْلِيِّ فِي طَرِيقِ النَّاسِ وَظَلَّمُهُمْ فَقَالَ: «عَرَضْتَ عَلَيَّ أَعْمَالَ أُمَّتِي حَسَنَهَا وَسَيَّئَهَا فَوُجِدَتِ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الْأَذَى يُمَاطُ عَنِ الْطَّرِيقِ وَوُجِدَتِ فِي مَسَاوِيِّ أَعْمَالِهَا النَّخَامَةُ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لَا تَدْفَنُ»⁽²⁾. وَقَالَ ﷺ أَيْضًا: «البصاق فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ وَكَفَّارَتُهَا دُفْنُهَا»⁽³⁾. وَقَالَ ﷺ: «اتَّقُوا اللَّعَانِينَ، قَالُوا: وَمَا اللَّعَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي يَتَخَلَّ فِي طَرِيقِ النَّاسِ وَفِي ظَلَّمِهِمْ»⁽⁴⁾.

إِنَّ الْمَنَاطِقَ الْبَارِدَةَ الرَّطِبَةَ وَذَاتَ الظَّلِّ تَعْتَبَرُ جَوَّاً مُلَائِمًا لِنَمْوِّ أَغْلَبِ أَنْوَاعِ الْبَكْتِيرِيَا وَبَوِيَضَاتِ الدِّيدَانِ؛ وَذَلِكَ لِخَلْوِهَا مِنْ تَأْثِيرِ الْأَشْعَةِ فَوْقِ الْبَنْفِسِجِيَّةِ الْقَاتِلَةِ لِلْجَرَاثِيمِ وَالْبَوِيَضَاتِ، وَبِمَا أَنَّ الْبَوْلَ وَالْبَرَازَ يُعْتَبَرَانِ مِنْ مَصَادِرِ هَذِهِ الْجَرَاثِيمِ وَالْدِيدَانِ؛ حِيثُ يَحْتَوِي الْجَرَامُ الْوَاحِدُ مِنْ الْبَرَازِ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ مَائَةِ أَلْفِ مَلِيُونٍ جُرُثُومَةٍ؛ لِذَلِكَ نَصَحَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعَدِمِ التَّبُولِ وَالتَّبَرُّزِ فِي الظَّلِّ»⁽⁵⁾.

(1) سنن الترمذى، كتاب الأدب، 3/303.

(2) رواه البخارى، كتاب الطب، 7/224.

(3) كتاب رياض الصالحين، ص 139.

(4) النووي، يحيى بن أشرف أبو زكريا، شرح النووي على مسلم، دار الخير، 1996م، كتاب الطهارة، رقم 268، ص 112.

(5) عبد الجود الصاوي، من إعجاز القرآن والسنّة في الطب الوقائي والكتائنات الدقيقة، موقع الحسني، ص 5.

ثانياً - حفظ الطعام والهواء والماء من التلوث.

إنَّ جراثيم الأمراض والأوبئة تنتقل بشكل رئيس من خلال الطعام والهواء والماء. فأمر الشارع الحكيم بأمور تصبُّ كُلُّها في حفظ هذا الثلاثي من التلوث بها .

أ - حفظ الطعام من التلوث:

يعتبر تناول الأطعمة الملوثة من أهمّ وسائل انتقال الأمراض كالتيفود والرُّحْار وشَلَلُ الأطفال والتهاب الكبد الفيروسي؛ حيث تنتقل جراثيم المرض من بُراز المريض أو حامل المرض إلى الإنسان وذلك عن طريق اليد أو الآنية، ونسبة حدوث ذلك تعتمد اعتماداً كبيراً على مستوى نظافة الفرد والبيئة وتطورها، فها هو رسول الله ﷺ وعي بالثقافة الصحيَّة بين المسلمين قبل أن تُكتشف الكائنات الدقيقة المُضرة، ليقيهم أخطارها، فأمر المسلمين بتخصيص يد للأكل والمُصافحة، ويد لمُباشرة الأذى والخلاء، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كانت يد رسول الله ﷺ اليمني لظهوره وطعامه واليسرى لخلائه وما كان من أذى»⁽¹⁾ وقال ﷺ: «يا غلام! سُمِّ الله وَكُلْ بِيمينك وَكُلْ مَمَّ يليك»⁽²⁾.

ب - حفظ الهواء من التلوث:

إنَّ نفخ الهواء يؤدي إلى انتقال كثير من الأمراض المُعدية كالأنفلونزا وشَلَلُ الأطفال والنُّكاف والحمبة الألمانية والرشح والتهاب الحلق والجدري والسُّل وغيرها من الأمراض وخاصة الفيروسية، لذلك وجَّه رسول الله ﷺ أتباعه عدم النفخ والتنفس في آنية الأكل والشرب، كما أمرهم بتغطية الوجه أثناء العطاس والتشاؤب، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يتنفس في الإناء أو ينفخ فيه»⁽³⁾.

(1) رواه البخاري، كتاب الوضوء، 1/84.

(2) رواه البخاري في كتاب الأطعمة بباب التسمية، 7/121.

(3) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي: فتح الباري في شرح البخاري، دار الريان للتراث، 1986م، حديث 92 وكذلك: رواه مسلم حديث 267.

وفي حديث آخر أنَّ النبي ﷺ نهى عن التَّنْفُخِ فِي الشَّرَابِ، فقال رجلٌ: القَدَارَةُ أَرَاهَا فِي الْإِنَاءِ؟ قال: «أَحْرَقَهَا» قال: فإنِّي لَا أَرْتُو مِنْ نَفْسٍ وَاحِدًا قال: «فَأَبْنِي الْقَدْحَ عَنْ فِيكَ»⁽¹⁾. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ: «كَانَ إِذَا عَطَسَ غَطَّى وَجْهَهُ بِيَدِيهِ أَوْ بِثُوبِهِ وَغَضَّ بِهَا صَوْتَهِ»⁽²⁾، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا تَنَاءَبْتُمْ أَحَدَكُمْ فَلَيُضَعِّفَ يَدُهُ عَلَى فِيهِ»⁽³⁾.

ج - حِفْظُ المَاءِ مِنَ التَّلُؤُثِ:

يعتبر الماء الراكد بيئة ملائمة لنمو الكثير من البكتيريا كالكوليرا والسامونيلا والشigelلا وغير ذلك، كما تحتاج بعض الطفيليات الأولى والديدان كالزحار الأمبي والديدان المستديرة والبلهارسيا إلى الماء لإكمال دورة حياتها خارج جسم الإنسان، ويساعد التبول والتبرُّز على نمو هذه الطفيليات والديدان وسرعة تكاثرها وانتشارها، لذلك نهى رسول الله ﷺ عن التبول في الماء الراكد -الذي لا يجري- لكي يبقى الماء في وقاية من التلوث⁽⁴⁾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَبُولُنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ الَّذِي لَا يَجْرِي ثُمَّ يَغْتَسِلُ فِيهِ»⁽⁵⁾.

كما أوصى رسول الله ﷺ بتغطية الآنية وربط قرب الماء منعاً من تلوثها من الجراثيم الوافدة والتي تؤدي إلى ظهور الأوبئة وانتشارها فقال ﷺ: «عُطُوا الْإِنَاءُ وَأُوكُوا السِّقَاءُ فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزَلُ فِيهَا وَبَاءٌ لَا يَمْرُّ بِإِنَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ غِطَاءً أَوْ سِقَاءً لَيْسَ عَلَيْهِ وَكَاءٌ إِلَّا نَزَلَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَبَاءُ»⁽⁶⁾.

(1) رواه الترمذى حديث 765، وكذلك في رياض الصالحين، ص 114.

(2) رواه الترمذى، في أداب العطس والعطاس، حديث 266.

(3) رواه البخارى، كتاب الطب، 7 / 237.

(4) نقلاً عن عبد الدائم الكھيل: الطب النبوى، موقع مجلة الدعوة، ص 9.

(5) رواه البخارى، كتاب الوضوء، 1 / 115.

(6) رواه البخارى، باب الكرع في الحوض، 7 / 203.

ولوقاية الماء من التلوث -أيضاً- نهى النبي ﷺ عن إدخال المستيقظ من نوم يده في الإناء قبل أن يغسلها ويُطهّرها، فلعله مَسَ أو حَكَ بها سَوْاته أو عُضواً مريضاً مُتقرّحاً من جِسمه وهو نائم، قال رسول الله ﷺ: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمض يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً، فإنَّه لا يدرِّي أين باتت يده»⁽¹⁾.

ولحفظ الماء من التلوث -أيضاً- نهى ﷺ عن الشرب مباشرة من فم السقاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «نهى النبي ﷺ أن يشرب من في السقاء»⁽²⁾. إن المليلتر من اللعاب يحوي بلايين الجراثيم فعندما تخرج هذه البلايين في لعاب الشارب أثناء شربه من إناء كبير، يمكث فترة طويلة مصدراً لشرب كثير من الناس، فتهيأ الفرصة لتكاثر هذه البلايين وتُسبّب تلوثاً لهذا الماء ويصير مصدر خطر لمن يشرب منه بعد ذلك⁽³⁾.

ثالثاً - عزل المرضى والحجر الصحي

الحجر الصحي، فقد كان عليه الصلاة والسلام أول من نادى بالحجر الصحي، وأدرك أهمية العدوى في نقل الأمراض، حين قال عن الطاعون: «الطاعون رجز أرسله الله على بني إسرائيل، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تَخْرُجوا»⁽⁴⁾.

(1) رواه البخاري، باب الاستجمار وترأً، 86.

(2) البخاري، باب الشرب من فم السقاء، 7/204، كذلك: نقلاً عن عبد الحميد الزنداي جورج. س. نيليسون، دروس من تعليم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الوقاية من الأمراض الطفيليّة، بحث مُقدّم للمؤتمر العالمي الأوّل للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، إسلام آباد- باكستان، 1408هـ، ص 189.

(3) عبد الدائم أحمد جواد، الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم، 1407هـ، ط 1، دار السلام للطباعة والنشر- القاهرة، ص 95.

(4) نقلاً عن كتاب عبد الحميد القضاة، تفوق الطب الوقائي في الإسلام، بحث مُقدّم للمؤتمر العالمي الأوّل للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، إسلام آباد- باكستان، 1408هـ، ص 78.

فالرسول الكريم نهى المسلمين عن الدخول إلى الأرض التي بها الطاعون ونهى عن الخروج منها بعد وقوعه، كمال التحرز منه فإن في الدخول في الأرض التي هو بها تعرضاً للبلاء.

وهذا ما يتبع الآن في الوقاية من الطاعون، فإذا أصيبت مدينة ما بهذا الوباء، أقيم حولها «حجر صحي» يمنع أي شخص من الخروج منها، ويمنع دخول أي شخص إليها، ما عدا الأطباء ومعاونيهما، وبذلك يمنع المرض من الانتشار خارج هذه المدينة، ويتم حصار الوباء في مكان واحد مما يسهل فيه مراقبة المصاين وعلاجهن.

ولضممان تنفيذ هذه الوصيّة النبوية العظيمة فقد ضرب رسول الله ﷺ سُوراً منيعاً حول مكان الوباء، فوعد الصابر والمحتسب بالبقاء في مكان المرض بأجر الشهداء، وحذّر الفار منه بالويل والثبور. في قوله ﷺ: «الفار من الطاعون كالفار من الزحف ومن صبر فيه كان له أجر شهيد»⁽¹⁾.

إذا قيل هذا الكلام لرجل صحيح منذ مائتي عام فقط وهو يرى صرّعى المرض الوبائي يتلقّطون من حوله وهو بكامل قوته وقيل له: امكث في مكان لا تخرج، لا يعتبر هذا الكلام جنوناً أو عدواً على حقه في الحياة، ويفر هارباً بنفسه إلى مكان آخر خالٍ من الوباء، وقد كان المسلمين هم الوحيدة بين البشر الذين لا يفرون من مكان الوباء مُنفّذين لأمر نبيهم ولا يدركون بذلك حكمة، حتى تقدّمت العلوم واكتشفت العوالم الخفية من الكائنات وعرفت طرق تكاثرها وانتشارها وتسببها في الأمراض والأوبئة وتبيّن أنّ الأصحاء الذين لا تبدو عليهم أعراض المرض في مكان الوباء هم حاملون لميكروب المرض وأنّهم يشكّلون مصدر الخطر الحقيقي في نقل الوباء إلى أماكن أخرى إذا انتقلوا إليها، وبسبب اكتشاف هذه الحقيقة نشا نظام الحجر الصحي المعروف عالمياً الآن والذي يمنع فيه جميع سكان المدينة التي ظهر فيها الوباء من الخروج منها كما يمنع دخولها للقادمين إليها فمن أطلع

(1) رواه البخاري، باب ما يذكر في الطاعون، 7/237.

محمدًا ﷺ على هذه الحقيقة؟ أيمكن أن يتكلّم أحد عن هذه الحقائق الدقيقة منذ أربعة عشر قرناً من الزمان؟ اللَّهُم إلَّا أنْ يكون كلامه وحِيَاً يأتِيه من علِيمٍ خبير بخلقه! حتى يرينا سبحانه آياته فنعرف أنَّها من ربِّنا فنحمدُه على ما منَّ علينا به من تشريعٍ وتكميلٍ⁽¹⁾.

كما أنَّ الطب النبوي لم يغفل المفهوم الوقائي بالنسبة للحيوان وفي ذلك يقول رسولنا الكريم: «لا يوردن مُمْرِض على مُصَحٌّ»⁽²⁾؛ أي: لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل السليمة، فيعدي مريضها سليمها، ولقد أشار الشاعر العربي إلى ذلك بقوله (كامل):

لا تربط الجرائم حول سليمية خوفاً على تلك السليمية تجرب بذلك قد عرف رسول الله - العَدُوِّي، وأوضح المفهوم الوقائي قبل أنْ تعرف الجرائم، وقبل أنْ يعرفها أطباء الشرق والغرب.

في قوله ﷺ: «فَرٌّ مِنَ الْمَجْدُومِ فَرَارُكَ مِنَ الْأَسْدِ»⁽³⁾. وفي هذا الحديث ما يوضح حرص رسولنا العظيم على خَطْرِ الأمراض الوبائية، كما أَنَّه لفت للنظر في هذا الحديث يُشير إلى دور من أدوار مرض الجذام يبدو فيه المصاب بِوجه ذي سُحْنة تُشبه وجه الأسد، عرفت حديثاً (السُّحنة الأَسْدِيَّة).

ومنعاً لانتشار الأمراض والأوبئة وضع رسول الله ﷺ قاعدتين أساسيتين تعتبران من أساسيات الطلب الوقائي الحديث بعد اكتشاف مسببات الأمراض والأوبئة وهما قاعدتا العزل والحجر الصحي، ففي الأولى قال رسول الله ﷺ: «لا يوردن ممراض على مُصحّ»، وفي الثانية قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها»⁽⁴⁾.

(1) الزنداني، المرجع السابق، ص 12.

(2) رواه البخاري باب الجذام، 7 / 231.

(3) رواه البخاري، باب الجذام، 7/231.

(4) رواه البخاري باب ما يذكر في الطاعون، 7/237. كذلك عبد الجبار الصاوي، المرجع السابق، ص 18.

لقد كانت الأوبئة الفتاكه والأمراض المعدية في العالم الإسلامي أقل بكثير منها في أوروبا، في المرحلة نفسها، بل إنَّ موجات الطاعون التي كانت تقضي على ربع سُكَان أوروبا كانت تنكسر حدَّتها عند حدود العالم الإسلامي.

رابعاً - تجنب لحوم الحيوانات المحرمة لمخاطرها.

قد تنتقل الكائنات الدقيقة للإنسان عن طريق أكل لحم الحيوانات الخازنة أو المصابة بها أو تناول منتجاتها لذلك حرم الإسلام أكل لحومها أو حتى التعامل معها وسمَّاها خبائث في قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِلُ لَهُمُ الظَّبَابُ وَيَحْرُمُ عَنْهُمُ الْخَبِيثَ﴾⁽¹⁾، فحرَّم أكل لحوم الحيوانات الميتة والدَّم وأكل لحم الخنزير، والسباع والطِّيور الجارحة، وأكل الحيوانات والطيور التي تتغذى على القاذورات، واقتناء الكلاب والتعامل معها إلا لضرورة، وقد أثبت العلم أنَّ هذه الحيوانات ولحومها تُشكّل بؤراً لجماعات هائلة وخطيرة من الكائنات الدقيقة الفتاكه بالإنسان. إنَّ لحوم الميتة والدَّماء المسُفُوحَة هي أولى الخبائث التي حرَّمها الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿حِرَّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنْزِيرِ﴾⁽²⁾، وقد تحقَّق ضررها علمياً وظهر خطرها على حياة الإنسان؛ وذلك لأنَّ احتباس دم الميتة في عروقها المُتشَعَّبة ضمن أنسجتها ييسر للجراثيم التي تعيش مُتطفلة على الحيوان في الفتحات الطبيعية والأمعاء والجلد، أنْ تنتشر بسرعة وسط اللَّحم من خلال السائل الزلالي في الأوعية والعروق، وتتكاثر بسرعة وينتشر عنها مركبات كريهة الرائحة سامة التأثير، كما قد يموت الحيوان بسبب مرض مُعيَّن فتنتقل جُرثومة المرض إلى الإنسان فتؤديه وقد تهلكه، كما في مرض السل والجمدة الخبيثة وجرائم السلمونيلا وداء الكلب⁽³⁾. وقد حرَّم الله سبحانه -أيضاً- الميتة بسبب الاختناق أو بسبب الرضى سواء كان ذلك الرضى بالوقد أو التردى من مكان عالٍ أو بواسطة النَّطح من حيوان آخر وكذلك ما أكل السبع؛ لأنَّ تلك الأنواع

(1) سورة الأعراف، من الآية: 157.

(2) سورة المائدة، من الآية: 3.

(3) عبد الدائم أحمد جواد، *الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم*، ط 1، دار السلام للطباعة والنشر، (القاهرة، 1407هـ)، ص 124.

إضافة إلى ما ينبع عن احتباس دمائها في أنسجتها من الأخطار السابقة فإنَّ الاختناق يزيد من سرعة تعفن الجثة، والرضن يُسبِّب انتشار الدم تحت الجلد وداخل اللحم والأنسجة في الأماكن المرضوضة، وقد تكون به جروح تسهل عبور جراثيم الهواء إلى داخل الأنسجة فتُعجل بتحللها وفسادها، وما تحمله السباع من جراثيم وكائنات دقيقة فتاكَة بين أنيابها تؤدي النتيجة نفسها بأنسجة الحيوان ولحمه مما يجعله يُشكِّل خطراً داهماً على حياة الإنسان حينما يأكل لحْمه⁽¹⁾.

أ - أخطار أكل الدَّم :

يُعتبر الدَّم من أخطر الأوساط لنمو شتى الجراثيم وانتشارها وحينما يسفح الدم بالذبح أو الفصل فإنه ينزعز عن الأوعية الدموية التي تحفظ حيويته وتقيه من التلوث؛ حيث تفقد كريات الدَّم البيضاء قدرتها على الاتهام الجراثيم وتموت خلايا جهاز المناعة، وتنهدم آلياته فتتكاثر الجراثيم بسرعة مذهلة، وتغزو سُوماماً (Toxins) فتاكَة قد تكون أشد مقاومة لحرارة الطبخ من الجراثيم ذاتها⁽²⁾.

ب - أخطار أكل لَحْم الخنزير:

أمَّا الخنزير فإنَّنا نوجز القول فيه حيث يقول ربنا سبحانه عنه: «فَإِنَّهُ رِجُس» والرجس الشيء القدر، والأقدار والنجاسات هي السبب الأكبر في إصابة الإنسان بالأمراض المختلفة لما فيها من جراثيم وطفيليات مُمُرِّضة، فالخنزير ينقل إلى الإنسان كثيراً من الكائنات الدقيقة الخطيرة؛ حيث يُصاب الخنزير بعدد كبير من الأمراض الوبائية لا تقل عن (450) مرضًا، ويقوم بدور الوسيط لنقل أكثر من (75) مرضًا وبائيًا للإنسان غير الأمراض العاديَّة الأخرى التي يُسبِّبها أكل لَحْمه، مثل تليُّف الكِيد وعسر الهضم والحساسية الغذائية وتصلُّب الشرايين وتساقط شعر الرأس وضعف الذاكرة والعمق، وتنشيطه لمرض الربو والروماتيزم وكثرة الأكياس الدهنية وعَلَاوة على آثاره

(1) الدقار، الطبيب محمد نزار: تحريم القرآن لأكل لحم الخنزير، موقع مجلة الابتسامة، ص 19.

(2) عبد الدائم أحمد جواد، الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم، ص 16.

السيئة على العفة والغيرة في التكوين النفسي. وينقل الخنزير بمفرده (27) مرضًا إلى الإنسان وتشاركه بعض الحيوانات في بقية الأمراض على أنه يقوم بدور المخزن والمصدر الأساسي لهذه الأمراض في نقلها إلى الإنسان مباشرة بنقلها إلى الحيوانات القابلة للعدوى، ثم منها إلى الإنسان. وينتقل أكثر من (16) مرضًا من الخنزير إلى الإنسان عن طريق تناول لحمه ومنتجاته... وأهم هذه الأمراض هي الحويصلات الخنزيرية والحمى المتموجة والدودة الكبديّة وداء وايل، وداء المكسيات اللحمية، والتهاب السحايا والمشيمة، وداء اليرقانات الشريطية الجوالة، والدودة الوحيدة المسلحة، وداء المتصورات الديفانية المقوسة، وداء الشعريات الحلزونية، والديدان السوطية، وداء السل، وداء المُبيضات الفطرية، والالتهابات المعاوية بجراثيم السالمونيلات والشايجالا وغير ذلك⁽¹⁾.

كما تنتقل عن طريق المُخالطة والتربية والتعامل مع منتجات الخنزير ومُخلفاته عدة أمراض لا تنقل عن (32) مرضًا، وأكثر الناس إصابة بها هُم عمال الزرائب والمجازر والأطباء البيطريون. وأهم هذه الأمراض علاوة على بعض الأمراض السابقة، الجمرة الخبيثة، الكلب الكاذب، الزحار الزيقي، الحمى القلاعية، الجمرة الخنزيرية، التسمم الدموي، الأنفلونزا الخنزيرية، الحمى اليابانية الخنزيرية، الديدان الرئوي الخنزيرية، الجرَب الغائر، السعار، داء النوم، الديدان القنفذية، وغير ذلك. كما تنتقل عدة أمراض لا تقل عن (28) مرضًا عن طريق تلوث الطعام والشراب بمُخلفات الخنزير⁽²⁾.

ج - أخطار الكلاب:

لقد شدَّ رسول الله ﷺ التهـي عن مُخالطة الكلاب، وهي سباع مُدجنة فيها من الطفـليـات والـجـرـاثـيم الدـقـيقـة الشـيءـ الكـثـيرـ، والـتي قد تـسـبـبـ للإنسـانـ أـخـطـارـاـ مـحـقـقـةـ منهاـ عـلـىـ سـبـيلـ المـثالـ:

(1) المرجع نفسه، ص 18.

(2) المرجع نفسه، ص 19.

- 1 - احتواء أمعاء الكلاب على أعداد كبيرة من الديدان الشريطية والتي تنتقل إلى الإنسان عن طريق ابتلاع بيضها الموجود في الطعام أو الماء الملوث ببراز الكلاب.
- 2 - داء الكلب المعروف وبعض أنواع داء الليشمانيات.
- 3 - مرض الكيسة المائية الكلبية والتي تكون الكلاب فيها هي السبب الغالب في إصابة الإنسان وحيواناته الأليفة والتي تتغذى على الجيف؛ ذلك لأن الكلب يُنْظَف استهلاكه فينتقل بيوض ديدان (الشريطية المُكُورَة المُشْوِكة) والتي تعيش في أمعائه إلى الإنسان عن طريق الطعام أو الماء الملوث بها وسبباً له (داء الكيسات المائية الخطير).
- 4 - كثير من الأمراض الطفيلية وأخطرها مرض (عداري) والتي تسببه الدودة الشريطية (أكنوكاوسجرانيولوساس) والتي توجد في كل مناطق العالم التي تعيش فيها الكلاب على مقربة من الحيوانات الداجنة آكلة العشب. من هذا وغيره ندرك السر في نهي الرسول ﷺ عن اقتناه الكلاب إلا لضرورة. عن أبي طلحة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الملائكة لا تدخل بيته فيه كلب»⁽¹⁾، وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «من اتَّخَذَ كُلُّبًا إِلَّا كَلْبًا مَاشِيَّةً أَوْ صَيْدًا أَوْ زَرْعًا انتَقَصَّ مِنْ أَجْرِهِ كُلُّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ»⁽²⁾، كما ندرك السر في قوله ﷺ: «طهور إماء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاً هن بالتراب»⁽³⁾.

أن أوجه الإعجاز في هذه النصوص التي وردت في هذا البحث - ومثلها كثير - فالمُتَدَبِّرُ فيها يلاحظ الإشارة الجلية أحياناً والإشارة الخفية أحياناً أخرى إلى عالم الكائنات الدقيقة وإلى المواد الضارة بوصفها مسببات للأمراض وحدوث العلل وانتشار الأوبئة، بينما كان الناس في زمن الرسول ﷺ وقبل

(1) رواه البخاري، 310 / 7

(2) رواه البخاري، 157 / 7

(3) رواه البخاري، 90 / 1

زمنه بل وبعده -حتى اكتشاف (باستير) الميكروبات- يعتقدون أنَّ الأمراض تُسبِّبها الأرواح الشريرة والشياطين والنُّجوم ولا عَلَاقَة لها بِنظافة أو نظام أو سُلوك و كانوا يطلبون لها العلاج بالشعوذة والخرافات. قال تعالى: ﴿وَقَلْ حَمْدٌ لِلَّهِ سَيِّرِكُمْ إِيمَانِهِ فَعَرَفُوهُنَا وَمَا رَبِّكَ يُعَنِّفِلْ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾⁽¹⁾.

وهكذا أثبت العلم سُبُق القرآن الكريم والسنَّة النبوية في الإشارة إلى الكائنات الدقيقة، ومُسَبِّبات الأمراض. وقد قدم الإسلام للبشرية أيسراً وأنجح السُّبُل في القضاء عليها وحماية الإنسان ووقايته من أخطارها، ورأى العلماء بأعينهم صدق وحي الله لرسول الله ﷺ تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَلَّا رَبَّ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ أَكْحَحُ وَيَهْدِي إِلَى صَرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾⁽²⁾.

خامساً - مُعالجة الأمراض النفسيَّة

فقد كان هدْيَه توجيه طاقة المريض إلى فعل الخير في المجتمع، والاعتماد والتوكُّل على الله والالتجاء إليه والتسليم له والانكسار بين يديه، والصَّدقة والدُّعاء، والتوبَة والاستغفار، والإحسان وإعانته الملهوف والتفريج عن المكروب. فقد عَلِمَ أنَّ الأرواح تقوى متى قويت النفس والطبيعة، وتعاونا على دفع الداء وقهره، فكيف يضعف من قويت طبيعته وفرحت بِقربها من بارئها وحبها له وتنعمها بِذكره وانصرافها إليه واستعانتها به وتوكلها عليه. وهذا يكون لها من أكبر الأدوية، وتوجب هذه القُوَّة دفع الألم عن الإنسان⁽³⁾. ومن أهم نعم الله التي تتحقق الصَّحة النفسيَّة والجنسية وبناء الأُسرة التي هي الوحيدة الاجتماعية الأساسية، الزواج. ولذلك ذكره الله سبحانه وتعالى في عدد من الآيات، منها: ﴿وَمِنْ إِيمَانِهِ أَنَّ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَشْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾⁽⁴⁾، وقد أمر النبي بالزواج وحثَّ عليه فقال:

(1) سورة النمل، الآية: 93.

(2) سورة سباء، الآية: 6.

(3) ابن قَيْمِ الجَوزِيَّة، المصدر السابق، ص 168.

(4) سورة الروم، من الآية: 21.

«النِّكاح من سُنَّتِي فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»⁽¹⁾، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُخَاطِبًا شَبَابًا أُمَّتِهِ: «يَا مَعْشِرَ الشَّبَابِ مِنْ أَسْطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلِيَتَزُوْجْ»⁽²⁾.

ذَلِكَ أَنَّ الزِّوْجَ يَدْعُوا إِلَى الْحَفَاظِ عَلَى الْأُسْرَةِ الَّتِي تَؤْدِي إِلَى تَكْوِينِ الْمُجَمَّعِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْأَبْنَاءُ سُعدَاءٍ فِي ظَلِّ مَظْلَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ تَكْتَمِلُ فِيهَا جَمِيعُ جَوَابِ الْحَيَاةِ الَّتِي تَؤْثِرُ فِي نَفْسِيَّةِ الْفَرْدِ. وَقَدْ وَرَدَ فِي أَقْوَالِ النَّبِيِّ الْكَثِيرُ مِنَ الْطُّرُقِ الْوَقَائِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالْعَلاجِيَّةِ وَالنَّصَائِحِ الْطَّبِيَّةِ الْمُهِمَّةِ، مَمَّا يُخَالِفُ مَزَاعِمَ ابْنِ خَلْدُونَ الَّذِي يَبْدُو أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُقْدِرُ كَثِيرًا أَهْمَيَّةَ الطَّبِّ النَّبِيِّ حِينَ قَالَ عَنِ الرَّسُولِ: «إِنَّمَا بُعْثَلَعْلَمَنَا الشَّرَائِعُ، وَلَمْ يُبَعِّثْ لِتَعْرِيفِ الطَّبِّ وَلَا غَيْرِهِ مِنَ الْعَادَاتِ. وَقَدْ وَقَعَ فِي شَأنِ تَلْقِيَحِ النَّخْلِ مَا وَقَعَ، فَقَالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْوَالِ دُنْيَاكُمْ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمَلَ شَيْءٌ مِنَ الطَّبِّ الَّذِي وَقَعَ فِي الْأَحَادِيثِ عَلَى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ، فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدْلِلُ عَلَيْهِ إِلَّا إِذَا اسْتَعْمَلَ عَلَى وَجْهَةِ التَّبَرُّكِ وَصِدْقِ الْعَدْدِ الإِيمَانِيِّ، فَيَكُونُ لَهُ أَثْرُ الْكَلِمَةِ الإِيمَانِيَّةِ، كَمَا وَقَعَ فِي مُدَاواةِ الْبُطُونِ بِالْعَسْلِ». وَالَّتِي تَنَضَّحُ مِنْ قَوْلِهِ السَّلَامُ لِلرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ يَشْتَكِي مَرْضَ أَخِيهِ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي هَذَا اسْتَطَلَقَ بَطْنُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «اسْقِهِ عَسَلًا» فَسَقَاهُ ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: إِنَّنِي سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتَطَلَاقًاً. فَقَالَ لَهُ ثَلَاثَ مَرَاتٍ ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلًا فَقَالَ: لَقَدْ سَقَيْتُهُ عَسَلًا فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتَطَلَاقًاً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ، اسْقِهِ عَسَلًا» فَسَقَاهُ فِرْبَيْ⁽³⁾.

وَالْحَقُّ أَنَّ عِبَارَةَ ابْنِ خَلْدُونَ هَذِهِ قَدْ أَعْطَتْ فَرْصَةً ذَهْبِيَّةً لِبَعْضِ الْحَاقِدِينَ الَّذِينَ حَاوَلُوا التَّقْلِيلَ مِنْ أَهْمَيَّةِ الطَّبِّ النَّبِيِّ بِحُجَّةٍ أَنَّ قِسْمًاً مِنْهُ مَنْقُولٌ مِنْ آرَاءِ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ، وَأَنَّ مَا جَاءَ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ أَحَادِيثٌ لَا تَتَعَدَّى النَّصَائِحِ وَالْإِرْشَادَاتِ وَبَعْضِ الْمَعْلُومَاتِ عَنِ الصَّحَّةِ الْعَامَّةِ وَنَسَوَا أَوْ تَنَاسَوَا قَوْلَهُ: «مَنْ تَطَبَّبْ وَلَمْ يَعْلَمْ مِنْهُ الطَّبِّ قَبْلَ ذَلِكَ، فَهُوَ ضَامِنٌ»؟ أَيْ: يَضْمِنُ

(1) البخاري، كتاب النِّكاح، 2/7.

(2) البخاري، كتاب النِّكاح، 3/7.

(3) البخاري، كتاب الأطعمة، 139/7.

الأضرار التي تلحق بالمريض من جراء تطبيبه⁽¹⁾. وقال الله تعالى: «وَمَا يَطْقُنُ عَنِ الْهُوَقَ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى»⁽²⁾.

وممّا سبق يتضح أنّ للطلب الوقائي خصائص لمحناها في هديه عليه السلام، منها:

- 1 - السبق المبكر بعلم الوقاية: حيث أرست قواعدها قبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الزّمن يوم كان العالم يغطّ في سبات عميق من الجهل وقلة المعرفة.
- 2 - المصداقية: حيث أصبحت بديهيّات هذا الطّب أملاً وغاية يسعى العلم الحديث للوصول إليها وتحقيقها، وهكذا يزداد اليقين بهذا الدين رسوحاً على مدى الأيام.
- 3 - البساطة واليُسر: البساطة في التكليف واليُسر في التنفيذ؛ بحيث لا يستلزم كلفة مادّية ولا جهداً مرهقاً يقعد الهمم.
- 4 - لا تستلزم المؤهّلات الصّحيّة: فتطبيقها بالنسبة للمسلم لا يحتاج إلى إجراءات معقّدة تستلزم قدرًا هائلاً من المعرفة، أو حدّاً متميّزاً من الذكاء، أو مؤهلاً علمياً معيناً، فكل فرد من المسلمين مؤهل لذلك.
- 5 - الذاتيّة في التنفيذ: أي: أنّ المسلم يقوم بالتطبيق تعبدًا لله تعالى؛ فهو لا يحتاج إلى مدير يراقبه، أو شرطي يحاسبه؛ لأنّ الرقيب هو الله تعالى، وواعظ المؤمن ينبع من أعماق نفسه؛ لذا فالمجتمع الإسلامي في غنى عن الرّقابة الحكوّمية في تنفيذ هذه القواعد الصّحيّة.
- 6 - الشمولية: ونعني بها أنّ قواعد الطّب الوقائي في السنة جزء من كلّ، فهي من حيث قوّة الإلزام ووجوب النّفاذ تتميّز عن نظرية الطّب الوقائي المعاصر؛ إذ إنّها تعامل مع الإنسان على أنه مادة وروح؛ وفق المنهج الإسلامي الشامل.
- 7 - الحماية من الأمراض الجنسية: نظم الإسلام النشاط الجنسي تنظيمًا

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص 178.

(2) سورة النجم، الآيات: 4-3.

مُتوازناً، فلم يكتب الغريزة، ولم يطلق جِماحها، ولكن اعترف بها وأشياعها في إطار ضوابط شرعية مُحكمة، فسدَت بذلك منابع الأمراض الجنسية والاجتماعية، التي تُعاني منها المجتمعات الأخرى.

8 - التركيز على الوقاية: تُرَكَّرُ السُّنَّة على وقاية المُسْلِم من الأمراض، ولا تدعه حتى يقع فيها لِتعالجه؛ حيث إنَّها تُغلق منافذ المَرَض كُلُّها، وتُبَشِّرُ من يحمي مجتمعه من الأوبئة بالثواب والأجر العظيم.

9 - الديمومة: الالتزام بالأوامر الإسلامية الصَّحيَّة ليس مرهوناً بِمُدَّة، أو بسن مُعيَّنة، بل تبقى وتطبق ما دام الإنسان قادرًا على العبادة.

10 - قوانين الطَّب الوقائي في السُّنَّة: تعنى بالإنسان في جانبيه: المادي والروحي، وبالتالي فهي تَحْمي من أمراض كثيرة في القُلُوب والنُّفُوس، وتُبعده عن كل ما يعرّضه للأمراض⁽¹⁾.

التائج:

1 - الأخذ بالهَدْيِ النَّبُوِي يُوفِّر على الشخص الكثير من تكاليف العلاج ويقيه من المتابع والأضرار التي تقع عليه وعلى غيره مِمَّن يُحيط به.

2 - ما جاء في السُّنَّة النَّبُوِيَّة من إرشادات لا تحتاج في الغالب إلى مبالغ باهضة في طرق الوقاية بل ما على المسلم إلَّا أن ينظر في السُّنَّة ويعمل بها وإن لم تظهر له الحِكْمَة من الهَدْيِ النَّبُوِي في الحال لكن فيه الصَّلاح له، والكثير منه قد كشف عنه العِلْم الحديث فكان إعجازاً وسبقاً عِلْمياً باقياً على مَرِّ الأجيال.

3 - أنَّ الالتزام بالهَدْيِ النَّبُوِي فيه الوقاية من الأمراض الظاهرة والباطنة.

4 - من الأهميَّة بمكان تربية النَّشء على تعاليم الإسلام وأوامره في المحافظة على الصَّحة العامة والخاصة وتطبيق الهَدْيِ النَّبُوِي في كُلِّ الأحيان حتى يتربَّى على مَحَبَّته والالتزام بشرعه.

(1) محمد عبد الرزاق أسود، بحث مُقدَّم إلى مؤتمر السُّنَّة النَّبُوِيَّة في الدراسات المعاصرة بجامعة اليرموك باريد بالمملكة الأردنية الهاشمية (1428هـ/2007م)، ص. 3.